

اجتهادات يوم لهم .. ثم عليهم

تستدعى ذكرى ثورة 25 يناير دروسا من ثورات الشعوب عبر التاريخ الحديث، خاصة الثورات الكبرى التى كانت الثورة الفرنسية 1789 فاتحتها. انفجرت تلك الثورة، كغيرها من الثورات الشعبية الحقيقية، نتيجة تراكمات الاستبداد الملكى والفساد الارستقراطى والفقر الشعبى.

اندلعت ثورة 1789 فى مرحلة غمرت فيها أفكار التنوير فرنسا، وأبدع مثقفون تنويريون خلدّهم التاريخ فى بلورة مبادئ الحرية والمساواة والعدل والكرامة، وتأسيس حقوق الإنسان وحرياته. ولكن الجماهير التى تحركت فى يوليو 1789 كانت مدفوعة بغضب متراكم من الظلم والفساد والفقر واليأس من أى إصلاح أكثر مما كانت متأثرة بأفكار التنوير التى قامت على إطلاق العقل من أسرهِ، وبشّرت بأن تحريره من القيود سيفتح آفاقا لا نهائية أمام الإنسان ليمتلك حريته ويصنع تقدم البشرية.

ولذلك كانت المشاعر الغاضبة، وليست العقول الواعية، هى المحرك الأساسى لجماهير وصلت سخونتها إلى الحد الذى يحرق كل ما يقترب منها، ولا يترك مجالا بالتالى للتفكير فيما تفعله. ولذلك كانت الجماهير التى استثيرت عواطفها لتصرخ بنداء الجمهورية فى وجه لويس السادس عشر، حين وُضع على المقصلة فى يناير 1793، هى نفسها التى استقبلت نابليون بونابرت استقبالا الأبطال لدى عودته من مصر، وتصورت أنه

جاء منقذاً فصفت له عندما انقلب على حكومة الجمهورية الأولى وأنشأ ما سماه حكومة قناصل وعين نفسه قنصلاً أول، ثم هتفت له بنداء الامبراطورية عندما وضع السلطة كلها بين يديه وأعاد الملكية في صورة امبراطورية عام 1804. وهذه الجماهير هي نفسها التي حركتها عواطفها مرة أخرى فهتفت بسقوط «البطل»، أو من تخيلته كذلك، بعد عشر سنوات فقط عندما لقي آخر هزائمه في يونيو 1815، وصدّق معظمهم ما قيل في هجائه بأقلام بعض من سبق أن أفاضوا في مدحه.

ولا عجب أن تعود هذه الجماهير نفسها فتهتف بنداء الملكية وتؤيد عودة أسرة آل بوربون بعد 22 عاماً فقط على الهتاف بسقوطها، وتصفق لتنصيب لويس الثامن عشر بعد أن هالت لإعدام جده قبل 22 عاماً فقط. وليس هذا إلا بعض ما تفعله تعبئة العواطف الجماهيرية واستثارتها، دون أن يفهم من يستغلون الحالة التعبوية أنها يمكن أن تكون لهم اليوم وعليهم غدا.